

حضور الأمثال الشعبية في تركيبة المرأة الجزائرية.

جور أم الخير

جامعة محمد بن احمد، وهران 2

الملخص

قاربتُ في مقالتي كتاب " الأمثال الشعبية الجزائرية " لقادة بوتارن"، قراءة و تمحيصا، و هو مؤلف مميز ضم عددا معتبرا من الأمثال المتداولة بين الناس، مختصرة آلاف التجارب المتوارثة، التي صيغت لنا بكلمات وألفاظ موزونة المبنى والمعنى ودقيقة التوجه. و قد توارثت النساء هذه الأمثال شفها مع عادات المجتمع وأعرافه، هي صيغ جاهزة تستعمل في لحظات الفرح و الحزن وكذا في لحظات القلق و الهدوء، كجزء من موروث لساني و لكنه مخزون فعال في التأثير على سلوكياتنا اليومية.

مما لا شك فيه أن المرأة تتلقى منذ نعومة أظافرها، ضمن منطوق يومي متداول و خطابات متنوعة، أمثالا شعبية تلخص عصارة الماضي، هي أمثال تخرج في اللحظة المناسبة بروحها المميزة و نباهة تركيبها اللغوية لتصحيح وضعها محمدا، ولتصوب سلوكا اجتماعيا أو أخلاقيا، لا يقدر على تصويبه إلا هذه التركيبة البلاغية البديعة.

The Presence of Popular Proverbs in the Composition of Algerian Women

Djebbour Oum el Kheir

University of Oran2

In this article, I have read KadaBottarn's book "Algerian Popular Proverbs" read it and attempted to analyse it. He is a valuable author who has collected a considerable number of proverbs that are used in daily popular interactions. These proverbs summarize thousands of inherited experiences in the form of well-constructed, meaningful and accurately orientated words. They have been inherited verbally by women together with the customs and traditions of society. They are ready-made linguistic formulas used in moments of joy and sadness as well as in moments of anxiety and tranquility. However, their influence on our daily behaviors is high. There is no doubt that from their early age, women acquire, as part of their everyday speech and various discourses, such popular proverbs which recapitulate the past. They are contextual proverbs employed for correcting a specific situation or a social/moral behaviour.

حققت المرأة في المراحل المتأخرة نجاحا كبيرا على المستوى الاجتماعي و المعرفي و الحضاري، و قد تعززت قوتها و حريتها بمجموعة من القوانين المدنية التي ساهمت في إزالة المعوقات المتوارثة التي قيدت انطلاقها لتحقيق رسالتها في الحياة، رسالة رغبت في أن تكون هي من تصنعها و تؤسسها بإرادتها وإصرارها و ليس كما سطره الوعي الجمعي لها. و رغم ذلك فمن حقنا أن نتساءل هل تحررت المرأة كلية من الصورة المشوهة و السيئة التي طبعت في الذاكرة الجماعية من خلال الموروث الشعبي، و هل هذه الأمثال الشعبية السلبية مستمرة في التأثير عليها و على المجتمع ؟ و من يملك قوة القرار في إزالة ما لا يصلح من أمثال تختصر كل شيء في المرأة؟ و ما الأسباب التي جعلت توصيات الأنبياء تنسى وعلى رأسهم نبينا الكريم و قدوتنا محمد عليه أفضل الصلاة و السلام الذي كرمها أما و زوجة وابنة وأختا، وقال في حقها حينما سأله أحد الصحابة، من أحق بحسن صحابته: "أمك، قال ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم قال من؟ قال: أمك، ثم من؟ قال: ثم أبوك."¹ إن المرأة هي الركن الركين إذا كانت صالحة، و الصلاح لا يأتي من فراغ بل يتعزز بالتربية الحسنة و بتدريب الضمير على الاستقامة.

إن الأمثال جزء من ذاكرتنا الحية و المتحركة، بل هي كتاب موسوعي لحضارة و تاريخ و عادات و تقاليد مجتمع ما. فهي أشبه بمرآة عاكسة لحياة الأفراد و الجماعات، تنقل حقائق الحياة العربية للأزمنة السالفة بصدق و مصداقية مبهرة، فكثيرة هي العادات و الأعراف و الأخلاق التي لم تجد لها مكانا في كتب التاريخ و لم يخصص لها المؤرخون حيزا فكريا وكتابيا و لكنها تنفست روحا جديدة في تلك الأقوال الماثورة. فالأمثال تناقض الصمت لأنها جزء من كلامنا الجاهز و المكون في ذاكرتنا، والأكد أننا نلجأ إلى هذا الكلام المصقول لصناعة حكاية خصوصية و عامة في آن واحد.

المثل لغة عند ابن منظور هو " الشيء الذي يُضرب لشيء مثلا فيجعل مثله..."² أما الفيروز آبادي فقد صرح أن: " المثل محرّكه الحجة و الحديث، و قد مثل به تمثيلا و امتثله و تمثله و به... تمثل بالشيء ضربه مثلا."³

تعمق الخوارزمي في الأمثال العربية فزعم أنها تحكمت في سلوكيات العرب لسهولة لبسها و لتقبل العامة و الخاصة لها رغم جهلهم لقائلها الأول، و لكنهم تشاركوا في صناعتها و نسجها من خيوط سحرية، فقال: " هي قريبة إلى الفهم، عذبة على اللسان، مقبولة في القلب، لا يجهلها العامة و تتكبر عنها الخاصة، و أكثرها مرسل لا يعرف أصحابها لإتيان الزمان على ذلك، و لأن كلام العرب لا تقيده الأفهام، و لا تشغل بتخليده الأفلام، و لا يجري في الضبط والرواية مجرى كلام العرب الذين حفظوا أنسابهم و قيدوا آدابهم، و علموا أن الأمثال حكمتهم فوعوها..."⁴ أما أرسطو فكان دقيقا في تقريب معنى المثل الذي اشترط فيه الاختصار و الانتشار و صواب الفكرة، فقال: " المثل هو العبارة التي تتصف بالشيوع و الإيجاز، و وحدة المعنى و صحته."⁵

و إذا بحثنا في المعجم الفرنسي Larousse فتقابل لفظة Proverbe مادة مثل و تعني حكمة أو نصيحة، و حقيقة عامة متداولة إلى أن أصبحت شعبية.⁶

أما في المعجم الإنجليزي فنجدتها تقابل مادة " Proverb " و تعني جملة قصيرة موجزة تنقل قولاً ذاتياً أو حقيقة معينة أو حالة من حالات الحياة بهدف تقديم النصيحة.⁷

و إذا انتقلنا إلى الدارسين الغربيين نلقي الباحث " ألكسندر كراب Alexander Grape " يزعم أن المثل هو أسلوب من أساليب الفولكلور العريقة تردد خلاصة التجربة اليومية، و أن الإبداع في صياغة المثل يكمن في إبداع أفراد في الأصل، و لكن جمهرة الشعب و العامة هم الذين أذاعوها و روجوها وتواترها.⁸

أما الباحثة " ليش Leach " فمنحت للأمثال قوة التأثير السلوكي و التربوي فتقول: " المثل أسلوب تعليمي أو تهديبي سديد محكم السبك شائع الاستعمال ضمن العرف و التقاليد، فهو كقول القائل " حكمة الجماعة و إنتاج الفرد " كما أنه يرسم طريق السلوك أو العمل، و طريق الحكم على الموقف".⁹

لقد شبه بعض المتخصصين الأمثال بالقصة القصيرة جدا الحاملة لفكرة و موضوع ما، بجمل و عبارات مختصرة، متناولة تجربة معينة عاشها أشخاص في زمن سالف، فيعاد تذكرها و استرجاعها في لحظات مشابهة و مختلفة في آن واحد. وضمن هذا الإطار، نجد الباحثة نبيلة إبراهيم و أثناء اشتغالها في باب التراث الشعبي، تفضل الأمثال عن الشعر و القصة: " إن المثل الشعبي أهم من الشعر و القصة، وأقرب إلى الصدق و التعبير عن الظاهرة الاجتماعية".¹⁰ و تضيف: " إننا نعيش جزءا من مصائرنا في عالم الأمثال، و لعل هذا يفسر استعمالنا الدائم للأمثال على عكس الأنواع الشعبية الأخرى".¹¹

أما الثعالبي فقد قربها من الفلاشات التي تخلد التجربة الفاصلة و المهمة و لكنها فلاشات يطبعها الجمال الفني، و قد ربطت الكلمة منذ القدم عند العربي بفصاحتها، كما حدد البلاغيون ذلك ب: " خلُّ الكلمة من تنافر الحروف و الغرابة ومخالفة القياس".¹² فقال: " العرب يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون، و يروون أحسن ما يحفظون. " ¹³

قاومت الأمثال الشعبية لبقائها و لاستمرارها ضمن الوجدان الجماعي، الحداثة و وسائل التكنولوجيا والانشغال بالبدائل الأخرى و على رأسها الوسائل السمعية البصرية، فالجيل الجديد اعتبر هذا الموروث نوعا من الفلكلور و بدأ يستغني عنه و عن حفظه و رغم ذلك تمكنت الأمثال أن تجنب نفسها الإهمال و النسيان الكلي بشكل نسبي، عكس المصير الذي لحق الألغاز الشعبية و الحكايات الخرافية فقلل من جمهورها و حصرها في فضاء محدود. و بذلك نجحت الأمثال الشعبية أن تثبت بالوعي الفكري المتلاحق للأجيال التي توارثوها و استطاعت أن تصمد و تنتصر بحضورها في الذاكرة الجماعية.

إن الأمثال الشعبية التي وصلتنا شفها من الزمن البعيد غير المعروف المعالم، وصلتنا دون قائلها، فمبدعها إن صاح التعبير لم يعرف و لا يرغب في معرفته. فهذه الأمثال الشعبية نصوص مجهولة البداية، ينطبق عليها مقولة " موت المؤلف"، أو النص الحاضر الغائب.

لقد أبدعت كل لغات العالم أمثالا شعبية بحمولة فكرية و عقائدية خصوصية، و بعض هذه الأمثال كانت نتيجة حادثة تركت بصمتها في هذه الصياغة النهائية، أو كانت نتيجة انفتاح المخيال الأسطوري لمجموعة من المبدعين في مرحلة زمنية بحساسية المشترك و بعد ذلك لمجموعة من المفسرين لهذا الموروث الشعبي، و في هذا يقال: " ... بعض الأمثال تكون

وليدة الأسطورة في إطار التاريخ المحلي. أو وليدة حادثة تروى على أنها حدث تاريخي كبير كتلك المستمدة من أيام العرب.¹⁴

تتميز الأمثال الشعبية بجمالية خصوصية، إذ أن مكائنها الفنية لا تقل عن تلك الأمثال التي صيغت بعربية فصحة، (أسمع جعجعة و لا أرى طحينا- إذا هبت رياحك فاغتنمها) و لهذا السبب نجد عديد الروائيين العرب يوظفونها في أعمالهم الإبداعية، ضمن حوارات الشخصيات المنتقاة، بل كما قال الجزائري فإن الكاتب أضحى لا يستغني عن الأمثال الرصينة لتنمية مواهبة.¹⁵ و ليس بعيدا عن هذا المنهاج، ما يجاري فيه الكتاب الجزائريون، فهؤلاء في نصوصهم الروائية المكتوبة سواء باللغة العربية أو الفرنسية حاولوا نقل الأمثال الشعبية مع واقع الأحداث و الحقائق التي صوروها. و يكفي أن نستعرض هنا مثالين هما:

1. عبد الحميد هدوقة في روايته نهاية الأمس ، فيها هي العجوز ريحة تعزي نفسها أمام قسوة الحياة وأمام البؤس والحرمان، بقولها: " الدنيا بالوجه و الآخرة بالفعاليل".¹⁶

2. محمد ديب، و بلغة فرنسية التزمت الثنائية اللغوية و الفكرية يصرح في رواية الحريق:
"اللي يحفر حفرة لخواه يطيح فيها".

Qui creuse un fossé pour son frère, y tombera lui-même.¹⁷

"يقولون : دير الخير تلقاه".

N'est il pas dit : Accomplis le bien, tu le retrouveras.¹⁸

" اخرج الربى عريان يكسيك".

Présente toi à dieu dans ta nudité, il te vêtira.¹⁹

و من هنا، اختصرت الأمثال الشعبية آلاف التجارب المتوارثة، التي صيغت لنا بكلمات و ألفاظ موزونة المبني والمعنى ودقيقة التوجه. فيها هو شوقي الضيف يربط المثل ببداية التفكير الفلسفي لكل أمة فيقول عنه: " فلسفة الحياة الأولى و له في تاريخ الفكر أهمية لا يدركه إلا من تعمق في دراسة نفسية الشعوب و دراسة التطور الفكري عند البشر".²⁰
أما العسكري فزعم أن إخراجها للعامة بحلة فنية منمقة كان مقصودا و مدروسا من عقلاء العرب لأنها أشبه بالمفتاح الذي يفتح جميع أبواب الكلام بل هي تفعل في سامعها مفعول ما يسميه النقد الحديث إنتاجية النص، فقال: " و لما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جل أساليب القول، أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخف استعمالها، و يسهل تداولها، فهي من أجمل الكلام و أنبله، و أشرفه و أفضله، لقللة ألفاظها و كثرة معانيها، ويسر مئونها على المتكلم، مع كل عنايتها، و جسيم عائدتها، و من عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، و لها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب".²¹

كما قال الألوسي إن : " لضرب المثل دخلا عظيما في باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس و تصوير لأوابع المعاني بصورة المأنوس".²²

يسهم المثل في اكتساب المعارف والخبرات والاستفادة من دروس السابقين وتجاربهم وتجاوز الزمن وتيسير السبل المتاحة للوصول إلى الهدف المنشود، إضافة إلى التفكير والتأمل. فهو يمتلك القدرة على تثبيت محاسن الأخلاق في نفوس البشر، بأسلوب سلس دون وعظ أو تهيب أو دون إكراه أو تهديد.

فأغلب الأمثال كان يطبعها الاختصار والقصر ومرد ذلك تسهيل حفظها وتداولها بين الناس كما جاء سالفًا، ولهذا نجدها احتلت حيزًا مميزًا في موروثاتنا الثقافية، ساعد على انتشارها وامتدادها بين مختلف الطبقات الاجتماعية، لكن الخلاف أنه بين منطقة وأخرى قد تتغير بعض المقاطع، أو بعض الأفعال والكلمات. تقول نبيلة إبراهيم: " المثل قول قصير مشبع بالذكاء والحكمة. ولسنا نبالغ إذا قلنا أن كل مثل يصلح أن يكون موضوعًا لعمل أدبي كبير إذا استطاع الكاتب أو الباحث أن يأخذ المثل بذاته، يعايش تجربة المثل ويعبر عنها تعبيرًا تحليليًا دقيقًا."²³

فلأمثال مفعول سحري على الروح الإنسانية فهي تتقاسم معنا حياتنا وقدرنا، بل نفضلها على باقي الموروثات الشعبية الأخرى، فتشعرنا بالمشاركة والمواساة والسند الدائم، تقول نبيلة إبراهيم: "إننا نعيش جزءًا من مصائرنا في عالم الأمثال، ولعل هذا ما يفسر لنا استعمالنا الدائم للأمثال على عكس الأنواع الشعبية الأخرى، فالأمثال بالنسبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نود أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا، ونحن نذكرها بحرفيتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية، بل إننا نشعر بارتياح لسماعها، وإن لم نعش التجربة التي يلخصها المثل."²⁴

حين يدقق المتلقي في التركيبة اللغوية للأمثال، فإنه لا يجد هذا الأمر سهلاً، إذ من الصعوبة عليه أن يقوم بعملية التحديد والفصل بين المثل من الحكمة مثلاً وخاصة حينما يكون المثل فصيحاً. وهذه الصعوبة يلقيها الدارسون العارفون بالموضوع بدورهم. ورغم ذلك فالفرق الأساسي الأول يكمن في انتشار المثل ومحدودية مساحة الحكمة، والثاني في الطابع الكتابي والمكتوب.²⁵

ومن الدارسين الجدد الذين لم يميزوا بين المثل والحكمة، زاعما اعتبارهما كوجهين لقطعة واحدة أحمد رشدي صالح الذي صرح: "و من الملاحظ أن المثل والحكمة (المأثورة) يكادان أن يكونا شيئاً واحداً، هدفهما تعليمي وهو الوعظ وتعزيز أصول قضايا السلوك وقواعد المعرفة، والمعتقدات، والتشريع الشعبي، والمبادئ الفنية والذوق إلى الآخر، هذه المناحي المختلفة من النشاط الإنساني."²⁶

ولهذا تتقاطع الأمثال الشعبية عمودياً وأفقياً، فقد نلني أحياناً تطابقاً ملفتاً بين الأمثال الشعبية الجزائرية والمصرية من ناحية، كما قد نعثر على الأمر نفسه بين أمثال باللغة العربية الفصحى والفرنسية أو الإنجليزية من ناحية ثانية، ولكن المتفق عليه عند عديد الدارسين أن الأمثال الشعبية تكون أحياناً أبلغ وأعمق من الأمثال العربية الفصيحة مثال: " بغية المرأة أمر من الله."

إذن، الأكيد أن الأمثال الشعبية هي حاملة لرسالة ما، بحيث سعت هذه الأخيرة ولا زالت تسعى إلى تحقيق أهداف تربوية وتعليمية وكذا جمالية. وأبرز وظيفة للأمثال التي تمثل فلسفة الجماهير العربية، هي التنشئة الاجتماعية التي تعمل على تكريس الفروقات بين المرأة والرجل وعلى الإبقاء على سيطرة الرجل و سلطته الأبوية بمعناها الواسع.

و هذه الأمثال تتوارثها النساء و يتوارثها الرجال شفهيًا كما تُتوارث عادات المجتمع و أعرافه، فهي صيغ جاهزة تستعمل في لحظات الفرح و الحزن و كذا في لحظات القلق و الهدوء، لأنها ببساطة جزء من موروث لساني سريع التلفظ و السماع و الالتقاط و لكنه مخزون فعال في التأثير على سلوكياتنا اليومية. إلى جانب ذلك يتفق الجميع على أن الأمثال الحية بداخلنا لم تلقن لجمهورها و لنا دفعة واحدة بل اكتسبت عبر مراحل زمنية متفاوتة بتكرارها و حفظها ثم استحضارها تلقائيًا دون تكلف أو تصنع، فهل ينسى ما لا ينسى كما يقال.

إنّ المرأة من أكثر الفئات استخدامًا للمثل و يعود ذلك لعوامل كثيرة، متعلقة بطبيعتها وبأسلوب حياتها القائم على حب الثروة و الاحتكاك الدائم بالعائلة. إذن تلخص الأمثال كلامًا طويلًا ما كان سيقال إذا انعدم وجود هذا التراث الشعبي، فهي تختصر المسافات اللغوية بقدرة سحرية و ممتدة لصورة المرأة في علاقتها بالأبناء و الزوج و المجتمع. و تكشف دراسة الأمثال الشعبية عوالم الحياة العربية و تعاملها مع المرأة كأم و زوجة و أخت و طفلة و مواطنة. فتربطها أحيانًا بالحياء و العفة و الشرف و تربية الأبناء.

و مما لا شك فيه أن المرأة تتلقى منذ نعومة أظافرها، ضمن منطوق يومي متداول و خطابات متنوعة، أمثالًا شعبية تلخص عصارة الماضي، هي أمثال تخرج في اللحظة المناسبة بروحها المميزة و نباهة تركيبها اللغوية لتصحيح وضعًا محددًا، و لتصوب سلوكًا اجتماعيًا أو أخلاقيًا، لا يقدر على تصويبه إلا هذه التركيبة البلاغية البديعة. و من هنا سنسعى في هذا الموضوع إلى تبيان مقدرة الأمثال و ذكائها في إصلاح سلوكيات المرأة و تعزيز هذا الجانب، سوف نستعين بمجموعة من الأمثال الجزائرية التي يساهم سماعها باستمرار في تهذيب نفوس النساء دون الرجال. و من هذا المنطلق سنتساءل عن تفرعات الأمثال، فهل فعلاً هناك أمثالًا لا تناسب إلا النساء و أخرى للرجال فقط ؟ و لماذا ترتبط الأمثال الشعبية بالنساء ممارسة ؟

اعتمادًا على هذه النقاط الأساسية سنبنى موضوعنا حول علاقة الأمثال الشعبية بتربية المرأة. و هل هناك علاقة بين تعليم المرأة و اختفاء الأمثال الشعبية؟

للاشتغال في موضوع مداخلتي، التفت بداية إلى كتاب " الأمثال الشعبية الجزائرية " لقادة بوتارن²⁷، قراءة و تمحيصًا، وهو مؤلف قيم ضم عددًا معتبرًا من الأمثال المتداولة بين الناس، و قد قسم الكاتب بحثه إلى جزأين، جزء نظري و آخر ميداني تمثل في جمع المادة العلمية مع التعليق و الشرح البسيط. وكانت ملاحظاتي عديدة، الأولى: هناك أقوال مأثورة اعتبرها الكاتب أمثالًا رغم طابعها العادي نذكر منها: (يحمر وجهك، ص 169 تستخدم هذه الصياغة للدعاء بالخير و الصحة و صلاح الأمور)

يزين لك الأيام ص 170 كذلك صياغة تدعو إلى التفاؤل.

على الرأس و العين، ص 62 للدلالة على الترحاب و حسن الاستقبال و الضيافة.

لا سلام و لا كلام، ص 81 للإشارة إلى القطيعة النهائية بسبب خصام ما.

حط عليه العين. ص 98 للدلالة عن البخل و عدم الترحاب.

الملاحظة الثانية: أن بعض الأمثال لم تعد مقبولة لبعدها عن الرسالة الإيجابية المرجوة، بل يبدو لي أن من الضروري أن تغربل كلية ويحذف منها ما لا يصلح لزمنا الراهن. فقد وردت أمثال مخالفة للدين الإسلامي الصحيح لما تحمله من أفكار سلبية، تتدخل في الحياة الخصوصية للشخص و تقيده، بل وتحد من حريته و تفكيره، كما أن البعض منها مستعصية الإدراك و الاستيعاب لأنها قيلت لزمان مختلف عن زماننا.²⁸

و الملفت للنظر حين تصفحي الكتاب و مقارنة مجموع الأمثال الشائعة التي انتقيتها للدراسة و التحليل أنها لم تقتصر على موضوع واحد أو جانب حياتي معين بل كانت شاملة ملمة لعديد الظواهر. فقد غطت حيزا واسعا من نواحي الحياة الإنسانية ماعدا السياسة و الدين الذين أشيرا إليهما تلميحا باستخدام الرموز و الكناية، و قد تراوحت في معظمها بين تقرير معاملات اجتماعية محمودة أو فضح عيوب اجتماعية مذمومة، و قد اتبعت أساليب متعددة :

1. أسلوب الأمر: " اقصد صغارهم تعرف أسرارهم".

2. أسلوب النهي أو التحذير: " ما تخافش من الجيعان إذا جاع و خاف من الجيعان إذا شبع".

3. "أسلوب السخرية: حوحو يشكر رحو".

ثم تراوحت تصاعديا بين الأشكال الأساسية التالية:

1. أمثال قاربت معاني الحياة تعريفا و إرشادا بتقديم دروس محددة للنساء و الرجال معا.

2. أمثال حببت في الأخلاق الحسنة و ذمت تلك السيئة، و نذكر منها تلك التي دعت إلى التسامح و النسيان لأن الإيمان الصحيح لا يمكنه أن يكتمل دون قلب نقي، و محب للآخرين، كـ " المؤمن ما يكون حقود". و أخرى دعت إلى الطمأنينة طالما كان الشخص مستقيما في سلوكه " اللي في كرشه التبن يخاف من النار" أو " اللي ما في كرشه التبن ما يخاف من النار" أو التي أمرت بتجنب بعض العيوب المهلكة كالحسد و الطمع، " عاند و لا تحسد" و " الطمع يفسد الطبع." و أخرى ذمت الكذب و التزييف في المثليين التاليين: " أرواح الري عريان يكسيك." و "نوصلوا الكذاب لباب الدار."

3. أمثال تناولت المرأة بكل أشكالها و بمختلف سلوكياتها. و هو الجزء الذي سوف نتوسع فيه في مکتوبنا هذا.

4. أمثال فكرية قدمت رؤية مميزة حول موضوع الحظ و الإيمان بالقدر و الصدفة. و هي أمثال في مجملها محبطة، ترى أن القدر أقوى من الإنسان مؤكدة على الدوام بوجود الحظ في الحياة، كقولهم " إذا عطاك العاطي ما تشقى ما تباطي" فهنا نجد دعوة صريحة إلى الاتكالية و التواكل و ليس التوكل على الله ثم الحركة مع العمل. " و " اللي ما هي مكتوبة من الفم تطيح." وواضحة جليا هنا الانهزامية و الاستسلام للآخر، و الأصح أن ندعو إلى المحاولة و معاودة المحاولة إلى غاية الوصول إلى ما نرجوه من نجاح أو هدف. أو المثل الذي يهين الذات الإلهية و يتهم الحياة بتمييزها بين الأشخاص، و هو من الأمثال التي ينبغي أن تحذف كلية و تنسى: "ربي يعطي اللحم اللي ماعندهش سنين." و في اعتقادي أن هذا المثل يحمل حسدا لرزق الآخرين.

5. أمثال ثمنت العلم والعمل و الاجتهاد أو عكست ذلك، فمن الأمثال السلبية جدا قولهم: " سال مجرب و لا تسال طيب" و رغم أنه كثير الاستعمال إلا أن حامله يدعو إلى تفضيل المجرب على المتعلم " و الأصح لو قيل

" : سال مجرب و سال طبيب. " و أخرى إيجابية ثمنت العلم والعمل على المال رغم أن زمننا أصبح زمن المال، بحيث نجد فيه الأغلبية تضع المال في المرتبة الأولى " يفنى مال الجدين و تبقى حرفة اليدين. " و ضمن نفس الاتجاه التحفيزي للعمل. قولهم " الخدمة مع النصارى و لا قعاد الخسارة. " فالعمل يكسب صاحبه شرفا و قيمة و يغنيه عن السؤال و الحاجة، و يمنع عنه خسارة الذات.

6. و أخرى متنوعة الاستعمالات منها الإيجابية و السلبية كالصبر و معاملة الجار، كقول السابقين " الجار قبل الدار " و " و اللي طلبته الجارة للجارة يبرك لها في الحنجرة. "

و بالعودة إلى العنصر الأول الذي غلب عليه موضوع الحياة و دروسها، بدا لنا بعد القراءة الاستكشافية أنه كان محط اهتمام واضعي الأمثال بالدرجة الأولى مقارنة بباقي الأمثال، فالكم العددي لهذه الأمثال يفوق الأشكال الأخرى و يأتي في المرتبة المتقدمة، و إذا تعمقنا في مضمون هذا النوع تحليللا و تأويلا و بحثا في مقصوديته نجد أنفسنا أمام أفكار متشعبة و متنوعة و لكنها تساهم بقدر كبير في فهم الحياة و فهم جوانبها الغامضة.

فالمثل " فارح و حزين إلى يوم الدين " يحمل فكرة فلسفية تطمينية للنفس الإنسانية بضرورة الصبر والتسلح بالقوة لتحمل عثرات الحياة، إذ يستحيل أن نعيش السعادة بصورة دائمة و مستمرة، و نجنب أنفسنا لحظات التعاسة و هذا الأمر ملازم للإنسان إلى أن يغادر الحياة بل إلى يوم الحساب، و هذا المثل له ما يشابهه باللغة الفصحى، في القول " يوم لك و يوم عليك. " و لأن التعاسة و الألم جزء من الحياة، فقد يحضر الضرر من أقرب المقربين إلينا و من كل جهة نتصورها أو لا نتصورها، من الابن أو الأخ أو الجميع، و في ذلك يقال: " آح من بطني، آح من ظهري و آح منهم قاع. " و لأن هذه الحياة تفرض علينا دوما أن نعيش مع أناس آخرين لا يشبهوننا، و بحكم أن الفرد كائن اجتماعي و عائلي لذلك ينبغي أن نحذر ممن يكشفون بتصرفاتهم و خطاباتهم اليومية عدم خوف من الله. فهؤلاء يفضحون أنفسهم بأنفسهم و يكفي لذلك أن نحسن الملاحظة والحكم. و لهذا قيل في السابق: " اللي ما يخاف ربي الخوف منه. " و لتوضيح خصال هذه الفئة من الأعداء ينهنأ مثل آخر إلى ضرورة أخذ الحيطة من الشخص الذي يطيل السكون و السكوت دون سبب و لا ييوح بمكونات نفسه.

" فوت على الواد الفضفاض و ما تفوتش على الواد الساكت. "

و حتى نواجه بعض الأشخاص المرضى، بقوة الإيمان و بيقين أن الضار و النافع هو الله دون غيره، ينبغي أن نكون أقوياء من الداخل و الخارج لا تحركنا هزات الأعداء أو على الأقل ينبغي ألا نظهر لحظات ضعفنا، " كبر الشدا قدام الأعداء. " و ربما اعتراضي الوحيد على هذا المثل هو الجزء الأخير، فاستخراج قوة الذات تكون لأجل ذواتنا أكثر من الآخر. و لكن ربما يكون التبرير الوحيد لهذا الاختيار ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: " و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم و آخرين من ذويهم لا تعلمونهم الله يعلمهم. " ²⁹

و من الدروس التي تقدمها الحياة ساعية من خلال هذا الموروث إلى بناء الشخصية المتزنة و السوية، التي يسهل عليها مواجهة النكبات بثبات و تجلد و أن تعتمد على نفسها و تبني كينونتها بعيدا عن مساعدة الأطراف الأخرى ما نعر

عليه في المثل التالي: "المكسي يتاع الناس عريان." و هذه القوة تتعزز بالثقة بالنفس و الثقة بالقدرات الكامنة في الداخل حتى قيل: "عينك هي ميزنك."

فلا أحد يمكنه أن يعرف مصلحتك أكثر منك، أي من صاحب القضية "يعيا البنائي بيني و ما يجيش كيما مول الدار." في مرتبة ثانية، تناولت الأمثال الشعبية المرأة بمساحة واسعة كذلك، كما تأكدنا من ذلك بأنفسنا، بعد تتبع مجموعة من النماذج، و مرجع ذلك كما يقال دوما لأنها نصف المجتمع، و مربية النصف الثاني. فدورها في الحياة الاجتماعية هو دور محوري و محرك، و قد تراوحت صورتها بين كفتين رئيسيتين الذكاء و الحنان أو الخبث و الكيد أي بين الملمح الإيجابي و السلبي، و تظل الأمثال الإيجابية محدودة العدد مقارنة مع الأمثال التي ترسم صورة سلبية و مشينة، و منها "الرجل ساقية و المرأة جابية." فشطارة المرأة في هذه الصياغة تفوق شطارة الرجل في حسن التدبر و الادخار. و حين توصف بالذكاء و سرعة البديهة يقول السابقون: "الهدرة علي و المعنى على جاري."

أما الصورة السوداوية فلم تختص بها الثقافة العربية فقط و إنما تكاد تكون عامة و عالمية، تتشارك فيها جميع الثقافات و الحضارات. كما نعثر على المتناقضة منها التي لا نمسك بمقصوديتها بسهولة، فإذا كانت في الظاهر إيجابية إلا أنها قد تحمل قراءة ثانية مختلفة، ففي قولهم "وراء كل عظيم امرأة" قد تستوقفنا كلمة وراء، فلماذا لا يكون بجانب كل عظيم امرأة.

و من هنا لفت انتباهنا إلحاق الصفات السلبية التي -سنعدد بعضها- للتحذير منها و الخوف من شرورها. فهذا تحيز مكشوف ضد المرأة، بحيث صنفت ككائن هامشي و مهمش و مرفوض لعيوبه، وسط جو من الكبت و المنع و المراقبة المتواصلة، فهي فاقدة لاحترام ذاتها كما يقال.

إذن ثمة صفات غير محمودة توقف السامع أو المتلقي، متعلقة بالمرأة كالحسد و الغيرة و الغدر والخيانة والثرثرة و عدم كتمان السر و عدم صواب رأيها ... و غيرها من الصفات القبيحة المنفرة. و كأننا أمام نزعة ذكورية أو كأن قائل هذه الأمثال هو رجل حقود، مفضل لبني جنسه و كاره لهذا المخلوق الشيطاني في تصوره. و لكن الحق يقال، و المفارقة أن النساء يظهرن باستعمالهن المبالغ لنوعية من الأمثال المسيئة كرها و معاداة لمثيلاتهن و هن قصدا أو دون قصد ينقلن للجيل الجديد هذا المخزون السلبي كما يفعل الرجال.

فالانطباع الأول الذي انتابني حين وضعت هذه الأمثال أمامي، و التي قاربت موضوع المرأة، أنها متعددة و متنافرة إلى حد التباعد، فلا وجود لخيط مشترك بينها، بل هي بعيدة عن التلاحم، فتارة نعثر على أمثال تتمن المرأة و تمدحها و ترفع من قيمتها ثم نصادف أخرى تدمها و تقلل من شأنها، وكأننا أمام كائنين مختلفين. كقول السابقين "الخير مراه و الشر مراه" و المدهش هنا، أن أغلبية النساء يوافقن على هذا المثل الغريب و يكثرن من ترديده و يؤكدن على صوابه، فتصبح المرأة في كفة واحدة مع الخير أو الشر، لأنها مصدر السعادة و التعاسة للغير (أقارب و أجانِب) و لكن لماذا لا يكون الرجل كذلك مصدر شر و خير، ألا ترتكب أبشع الجرائم بأيدي الرجال في أكبر الحوادث والحروب؟ و هل الشر صناعة أثنوية كما يذهب الكثيرون دون وعي منهم بخطورة هذا الترسخ لفكرة شيطنة المرأة؟ بل يبدو لي أن الخطر في هذا النموذج ترسيخه للجزء الثاني دون الأول.

و إذا كانت الفتاة التي تلقى تربية حسنة تكون سببا في دخول والديها الجنة، بل قبل ذلك يسعد الولدان لوجودها و تكون بشرة خير كما قال الرسول في كلامه: " من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن و اتقى الله فيهن، فله الجنة."³⁰

فإننا نصدم حينما نسمع البعض يعزز لمعتقدات لا وجود لها، فيردد " زوج أحناش في غار و لا زوج بنات في دار " فالحنس هنا أكثر قبولا من الأنثى، و لعل سبب هذا التوصيف، هو بقايا اعتقادات العرب القديمة التي رمزت لها بالأفعى و الحية أو الحرباء و القائمة مفتوحة.

و حينما يُحذر من المرأة الشريرة التي لا تنسى الإساءة و لا تسامح بسهولة، فنسمع " إذا حلفت فيك المرأة بات قاعد، و إذا حلف فيك الرجل بات راقد." و يشبه كثيرا قولهم : الرجال تخدم الرجال، والنسا يهدمو الرجال.

أما المرأة التافهة اللامبالية فهي تربط بأعمال المطبخ و توصف بقولهم: " ما عرفت لا طابت و لا تحرقت." و رغم ذلك، فصورة المرأة الأم في المثل الشعبي هي الأحسن و الأكثر إيجابية و لكن تنقلب هذه الصورة كلية حينما تتحول الأم إلى حماة فتنتزع صفات الأمومة و التجربة منها و توصف بالظالمة والقاهرة و المتسلطة. كقولهم " كي تتفاهم العجوزة و الكنة يدخل إبليس الجنة." و كأن علاقة التفاهم الاحترام مستحلية، إذ لا يمكن أن تنشأ بينهما مودة و رحمة كاستحالة توبة إبليس.

لقد تعزز المجتمع بمسلمات و أحكام معادية للمرأة و منزلة من قيمتها و من مكانتها الاجتماعية، و هي مفاهيم لا يوقف الفرد عن ممارستها في اللاوعي الجمعي. يقول المغربي: " رسمت الأمثال صورة سلبية وضعتها في خانة الدونية و ربطتها بكل من شأنه الخط من قيمتها و التقليل من قدرها، و جعلتها مصدرا لكل الشرور."³¹ و لكن الأصح أننا نصنع المجتمع الصالح بعضويه الأساسيين، فلا تنحرف المرأة عن طبيعتها الطيبة و المسالمة إلا إذا فرط الرجل في مهمته و نام عن توجيهها، و إذا لم تعد المرأة امرأة كما نحب، فلأن الرجل لم يعد رجلا كما نحب.

الهوامش

¹ رواه مسلم ، في صحيح مسلم عن أبي هريرة، الرقم 2548، صحيح.

² ابن منظور، لسان العرب، ج 11، دار صادر بيروت، ط1، ص21.

³ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الجيل بيروت لبنان، 1952.

⁴ الخوارزمي ، أبو بكر محمد بن العباس ، الأمثال، تحقيق محمد حسين العرجي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائرية 1993، ص 5.

⁵ آية الله عاشوري، الكلام و الصمت في الأمثال الشعبية الجزائرية، دراسة تحليلية ، ماجستير جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان 2007-2008، ص 20

⁶ Larousse de français / plus 60 000 mots, définitions et exemples, imprimé en France, juin 2002 , p 342.

⁷ Oxford, advanced learner's dictionary, new edition p 933.

⁸ ينظر ألكسندر كراب، علم الفولكلور، تر رشدي صالح ، دار الكتاب العربي للتأليف و النشر، القاهرة ، 1967، ص 36.

⁹ إبراهيم أحمد شعلان ، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة ، 1972، ص 19-20.

- ⁽¹⁰⁾ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، ط 3 القاهرة ، ص 178.
- ⁽¹¹⁾ المرجع نفسه ، ص 147.
- ⁽¹²⁾ القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط و شرح عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى الطبعة الأولى 1932، ص 14
- ⁽¹³⁾ الثعالبي، أبو منصور، اللطائف و الظرائف، دار المناهل للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان، ط 1 2010م ، ص 50.
- ⁽¹⁴⁾ لطيفة حسين الكندري و بدر محمد مالك ،صورة المرأة في الأمثال الشعبية من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في الكويت ،الجزائري ، 1997، ص 170.
- ⁽¹⁵⁾ لطيفة حسين الكندري و بدر محمد مالك ،صورة المرأة في الأمثال الشعبية من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في الكويت، الجزائري ، 1997، ص 170.
- ⁽¹⁶⁾ عبد الحميد بن هدوقة ، نهاية الأمل، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1975، ص 200.
- ⁽¹⁷⁾ Mohamed Dib, L'incendie, éd Le Seuil 1954, p 49.
- ⁽¹⁸⁾ Mohamed Dib, un été africain, éd du Seuil 1959, p 53.
- ⁽¹⁹⁾ Mohamed Dib, le métier à tisser, éd du Seuil 1957, p156.
- ⁽²⁰⁾ لطيفة حسين الكندري و بدر محمد مالك ،صورة المرأة في الأمثال الشعبية من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في الكويت، (انظر أبو صوفة ، 1982م ، ص 10-11)
- ⁽²¹⁾ ينظر لطيفة حسين الكندري و بدر محمد مالك، صورة المرأة في الأمثال الشعبية من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في الكويت، ص 10.
- ⁽²²⁾ اللوسي ، 1985، سورة النور ، شرح الآية 35.
- ⁽²³⁾ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار المعارف ط3 ، ص 98.
- ⁽²⁴⁾ المرجع نفسه، ص 147.
- ⁽²⁵⁾ ينظر بوزيد رحمون، الأمثال الشعبية الجزائرية، دراسة موضوعاتية جمالية، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد بوضياف مسيلة (2015-2016) ص 42.
- ⁽²⁶⁾ أحمد رشدي صالح، فنون الأدب الشعبي، ج2، دار الهناء للطباعة و النشر، ط1 ، 1956، ص 5.
- ⁽²⁷⁾ قادة بوتارن ، الأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، ترجمة عبد الرحمان حاج صالح ، 1987.
- ⁽²⁸⁾ ينظر لطيفة حسين الكندري و بدر محمد مالك، صورة المرأة في الأمثال الشعبية من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في الكويت، المغربي، 2010 ، ص 8-9
- ⁽²⁹⁾ سورة الأنفال ، الآية 60.
- ⁽³⁰⁾ رواه الألباني، في صحيح الترغيب، عن أبي سعيد الخدري، الرقم: 1973، صحيح.
- ⁽³¹⁾ لطيفة حسين الكندري و بدر محمد مالك، المرأة في الأمثال الشعبية من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في الكويت، المغربي، 2010 ، ص 29.